عادت تطوف بصدريهما الراعشين

فى أعماق هذا الجرف الذى تحميه من كل نواحيه أطواد وأصلاد تنام مدينة « سلع » عن كثب من أطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الثرّ !

جلس « كريستيا » على عمود رخامى كان جاثماً على الأرض، فجلست « سافو » حياله وطفقا معاً ينظران فى ذهلة إلى هذه الروائع الفواتن يحفهما صمت ويغشاهما سكون، ويخترق آذانهما هدير الماء ودفعه على الأصنام المتداعية والعمد المنهارة فى ظلٍّ ظليل من أشجار الغار الواشجة

لم يجرُؤْ « كريستيا » على الهمس فلقد أمالته الصور البارعة إلى غرقٍ وأنسته ذلك الألم الذى تحيفه خلال طوافه بقنن جبل « حور » ونزوله إلى حدور وادى « العربة » بل لقد ألهته قسطلة الماء فى الصعيد المهجور عن أولئك الناس الذين نفروا إلى قتال « قيصر » تحت لواء « فروة بن عمرو » فما عادت صورهم تمرّ بصدره، وكذلك كان شأن « سافو » فلقد غرقت مثل غرقهِ وسبحت مثل سبحه، وأنستها هذه الظلال الندية الرخيّة تلك الثورة التى عصفت بنفسها الرقيقة فى ذلك الوادى الذى تتلاق عند قيعانه وكثبانه طرق « أيلة » والبحر الراعب، فأية فتنة هذه التى هدهدت النياع الملتاعين وحملت إلى النفوس الضارعة بعض العزاء الذى تحبه وتأنس إليه

هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضيَ « سلع » ففى هذه الدمن التى يغنّيها الماء الدافق الهادر غناءَه الشجىّ من أبعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة أن تستبق حزنها إلى الأبد، إذ لا معدى لها عن استمراء الوحدة والاصغاء إلى حديث حياةٍ منقرضة وإذ هى محمولة على الشرود فى جلال الموت وفى روعة السماء

معروف الارناءوط
عضو المجمع العلمى العربى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٠ قرشاً

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيالى ولا أصل له)

— ٦ —

كذبت على الله وعلى نفسى حين زعمت أنى معجب بالسمراء وأنى لا أحب الثوب الأزرق .. لا والله .. فما أبالى السمراء ولا اعجاب لى بها . وكل ما فى الأمر أنى رأيتها كثيرة المرح فراقنى أن تلقى الحياة هاشة باشة، وأن تضحك للدنيا، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة، وأنا مفطور على الجد، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبرى، فأنا لا أزال ألتمس التسرية والترفيه بما يدخل فى طوق من الوسائل، ومن هنا هذا التناقض الذى يراه الناس فى طباعى . ولا تناقض هناك فيما أعلم، وإنى لكما كنت طول عمرى، وإنما اختلفت المظاهر، وأولاى معقودة بأخراى، ولقد كنت فى صباى يائساً من الخير والسعادة فى هذه الحياة، وأنا الآن أكفر بهما، ولكنى كنت فى حداثتى يحزننى عجزى عن الاطمئنان إلى الخير فأكتئب وأتجهم وأروح أعذب نفسى وأقطع قلبى حسرة، وأغرانى هذا بالزهادة ونشدان الراحة — على الأقل — بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون اليه ؛ وكنت أقول لنفسى جادا إنى تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح، وإنى طلبت اللذات فما وجدت فيها لماقل غناء . . فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد فى الطلب شفاء منه . ولكنى ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إحاحاً، وأن الزهد ليس منجى، وأن النفس تخسر به طيبها ورضاها، وأن الذى لا يمد يده ليجنى ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التى يراها على أفنان الشجرة، وقد لا يفوز الطالب الساعى بكل ما يبغى، ولكنه لا شك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه، فاذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع، فالطلب أولى، والسعى أوجب، لأن الطلب والسعى

من مقتضيات الحياة ، والحياة هي الحركة لا السكون ولا الجمود ، والزهد قهر للنفس ، والطلب فيه كذلك قهر للنفس ، وقهر النفس مع افادة ما يمكن أن يفاد خير من قهرها مع الحرمان ، والدنيا تسير على مقتضى نواميسها هي ، لا على هوانا نحن ، فسيان أن تضحك لها وأن تعبس ، وللضحك إذن خير وأحزم وأولى بالعاقل

وعلى ذكر الضحك أقول إني أعجب لذات الثوب الأرجواني لماذا لا أراها تضحك أبدا ؟ ؟ إن من تعاريف الانسان أنه حيوان يضحك — أي يستطيع الضحك — ولكن هذه لم أرها تضحك إلا مرة واحدة ، فعظم وقع ذلك في نفسي لندرته ولأنه كان فلتة مفردة ، فوجهها كالقمر — سوى أن ماء الحياة والشباب والصحة يجري فيه — أعني أن تعبيره لا يتغير ولا يختلف ولا يتعدد ، وقاتل الله البعد ! وما يدريني ؟ ؟ فلعلها تبتسم ولكني لبعدها لا أراها رؤيتها ، ولست أذكر أني رأيت وميض عينيها ، أو أن عنوبة نظرتها أو قوتها حركت قلبي ، أو أن ابتسامتها الحلوة أو الساخرة أغرتني بالأمل أو الحزن .. ولكني على هذا سمعت صوتها .. نعم سمعته على الرغم مما يفصلنا من البعد .. وكانت الليلة مظلمة والحر شديدا ، وكنت قاعدا في الشرفة والشجر على جانبي الطريق كأنه صور مرسومة من فرط الركود ، فرأيتها تميل على جانب الشرفة ؛ ونظرت فاذا جارتها في شرفتها وبينهما نحو مترين أو زيادة ، وانطلقتا تتحدثان بصوت خفيض في أول الأمر ، ولم أكن أرجو أن أسمعهما ، ولا كنت آمل ذلك وإذا بالصوت يرتفع في الليل الساكن وإذا بصوت فتاتي يحمله الي .. ماذا ؟ لا أدري ! فما كان هناك نسيم حتى أقول إنه حمله .. ولكنه صافح أذني على كل حال ، وقد شق علي أن أكون بحيث أسمع حديثهما ، ولكني لم أكن أتسمع ، وكان بيني وبينهما عشرون أو ثلاثون متراً — إذا حسبت الارتفاع — فاذا كانتا قد شاءتا أن تتكلما بصوت يسمعه الجيران فأظن أن هذا ليس ذنبي . ولولا الحر والركود الخانق لدخلت جحري وأويت إلى حيث لا يبلغني الصوت ، وكنت ساعة تهدأ الى الصوت أنظر الى الطريق الخالي الموحش في هذا الليل الساكن — ولو شئت لقلت الراكد ولكني شاكرٌ — وكنت ربما رفعت عيني إلى النجوم الخفّاقة اللمعان ، وإذا بالصوت يقع في مسمعي فيكاد قلبي يقف . . . ولم يخالجني شك في أن هذا صوتها هي لا صوت الجارة . . ولا أدري من أين جاءني هذا اليقين ؟ ! ويالله من صوت ! ! . رنان . . نافذ . . عميق الوقع . . فلو كنت تغنين لما كان أحلى ولا أسحر . . بل أنت كنت تغنين .. فما يرتفع الصوت بهذا الوضوح البلوري ولا يخفت — في غير صعود — إلى مثل الهمس ، ويبريه الشجي أحياناً ، ثم يعلو كأنه صيحة الحرية ، ثم يضطرب ويتردد كأنه زفرة الأسى التي تتمرد على الكتمان — أقول ما يكون الصوت هكذا إلا في الغناء . . ولا أدري لماذا ، ولكني لم أكد أسمع صوتكِ حتى خيل إلي أني أسمع « أورفيوس » يناشد حبيبته ويدعوها إليه ويصيح « ماذا تراني أصنع بغير يوريديس ؟ » . نعم . . كذلك بدا لي أن صوتك الذي هفا إلي على جناح النسيم الراكد . . صوتك الحافل بالأسى المكتوم والرغبة المكبوتة . ينادي . . . ويدعو . . ثم لم أعد أدري ماذا جرى لي ولا ماذا أصاب الدنيا حولي ؟ . وأحسست أن حياتي قد التف عليها صوتك كما تلف الحبال على أعضاء الأسير . . وكأنما تسرب وجودي في وجودك الغامض . . . وأطفئت الأنوار . . وازداد الليل حولي ظلاماً وصار السكون أعمق ، وأنا واقف لا أشعر إلا بخفق هذا الصوت الملائكي في نفسي ، وطلع النهار — نهار الناس — وأنا ماثل على حافة الشرفة أنظر ولا أرى . . .

وقد صارت لي بعد تلك الليلة حياتان تتصارعان — أنا الذي كنت لو تصدقيني ، أقضي أيامي ساكناً لا يكاد يسرني أو يسوءني شيء — أما الآن فاني أثب وأنتقل من الرغبة الجامحة إلى العقل الجاف المحل . وأحس دمي الحار ينبض في عروقي — لا بل أراه — وقلبي يثب إلى حلقي فتتعلق أنفاسي وتكاد تحتبس ، ثم تغمرني موجة من المرارة الأليمة . . ويسخر مني عقلي ويهزأ مما تخيلته من صيحة أورفيوس إذ يدعو اليه يوريديس . وما دعا إلا قلبي ، وأين مني أورفيوس ؟ وأين مني تلك التي لم أعرفها الا منّ « جلوك »

وليت من يدري أين أنت الساعة ؟؟ إن الليل ساج كليلتنا تلك ، والدنيا ساكنة تنتظر أن تخرجي اليها في هالة من الحسن ، وأنفاسي معلقة وأذني مرهفة لأسمع ، ولي على هذه الشرفة ثلاث ساعات طويلات المدد ، ولست أحس تعباً أو أشعر بقلق ، فاني كالمجنون أو المخمور ، وإني لأرسل اليك من صيحات القلب ما لا يسمعه سواك لو أنك تصغين . . ثلاث ساعات وأنا أدعوك وأنت لا تجيبين .. كلا !! صوتك الملائكي لا يسمع مرة أخرى ، ولا ينطلق في هذا الليل الساجي لينعشه ويحييه . وإن نوافذ بيتك لمفتوحة ، وإن الحجرات لمضاءة ، ولكنها ساكنة كأنها مهجورة ، حتى ليفزعني النور الذي يخرج منها

لم أسمع صوتك بعد ذلك ولكني رأيت الوردة التي في يدك وكنت تنفضين عنها الطل أو الماء ، ثم غبت بها واختفيت بعدها كأنما يكفي غذاء لروحي أن أرى ممك وردة حمراء . . . كلا . . . لست أريد ورداً وإنما أريد أن أسمع ذلك الصوت وأنعم به ، وأن أجتلي عينيك وأرى في صقالها روحي ، وأن أرى رجفة شفتيك وأنت تبادليني الاعراب عما ضاق الصدر بما أجن منه والقلب بما وجد ، وأن أحس خفق قلبك وتحسين دقات قلبي . . . فاذا كنت تؤمنين بما أومن به — وما أومن من الناس إلا بكِ وحدكِ لا شريك لكِ — وإذا لم تكوني خيالاً ينسخه النور . . وإذا كنت أنثى . . وكان لك قلب ، فبالله الا ما أسمعتني هذا الصوت مرة أخرى !! وهل أقل من ذلك ؟ ؟

إنك جميلة وحزينة يا من لا أعرف اسمها — ولو كنت أعرفه لصنعت به على الدنيا التي تجملينها — هذا ما قاله لي صوتك حين سمعته في لجة الليل الساكن . وقد رأيتك بعد ذلك في الشرفة وفي يدك الوردة الحمراء ونظرت الى عينيك الواسعتين تحت حاجبيها المستقيمين فأعادت علي نظرتهما ما كان صوتك قد أوحى به الى — وإلا فلماذا ترتخي الهدب الطويل الأوطف إلا ليحجب ما عسى أن تشي به النظرة من الخواطر ؟ ؟ ورأيت فلك الجيل وشفتيك الورديتين خلقة لا صناعة . . . شفتيك اللتين لا تعرفان كيف تبتسمان . . وفكرت في هاتين العينين اللتين لا أجتلي فيهما البشر والرضى ، وفي هذا الفم الحلو الذي لا تريدين أن تدعيه يفتر عن ابتسامة — ولو ساخرة — فكرت في ذلك لحظة وان كانت عيناك وشفتاك جديرة بالتأمل دهراً كاملاً ... ومن أعاجيبك أني أراك أحياناً مسرورة ويبدو لي أنك قريرة العين ولكن لا ابتسام ، ولا ضحك ، ولا شيء من مظاهر السرور المألوفة . . . فقد لاحظتك ودرستك وخبرتك بقدر ما يتيسر ذلك لبعيد مثلي لا يراك إلا من النافذة ، وأعجبت بشبابك وجمالك ورزانتك وكبريائك أيضاً ، وبذوقك السليم في الثياب والزينة .. ودرست الذين حولك من أهلك ... وأحسب هذا الرجل المحتشم أباك وأظنك ورثت عنه هذا الجد الصارم والتحفظ الشديد . . وتلك أحسبها أمك وان كانت تبدو أصغر من أن تكون أماً . ويعجبني منك ومنها أنكما تبدوان كصديقتين لا كأم وابنتها . والآخرون .. ولكن مالي وهؤلاء جميعاً ؟ ؟

وقد رأيتك أمس تخرجين مع أمك أو يحسن أن أسميها صديقتك فانها أشبه بذاك — وكنت واقفة بالباب تنتظرين أن تلحق بك وفي يدك وردة صغيرة تشمينها .. واني لمجنون .. وإن لك أن تقولي إني طفل يرجو ويؤمن ، أو رجل يحلم ، ولكني أعتقد أن هذه الحركة الرقيقة كنت أنا المقصود بها ، فما كان في الطريق ولا في النافذة غيري . . نظرتِ الى فاحييتي ثم رفعت الوردة إلى أنفك الجميل وبعثت الى بهذه الوسيلة رسالة . . رسالة من مجهولة الى مجهول .. وخيل الى — وقد أكون واهماً — أني لمحت امتقاعاً في لونك حينئذ فزادت الرسالة غموضاً على جمالها . . ثم مضيت وما لبثت أن غبت عن عيني . . وبقيت أنا مسمراً في مكاني لا أبرحه انتظاراً لعودتك . . مضت ساعة وأخرى وثالثة وأنت لا تعودين .. واذا بك في الشرفة !! فان كنت قد دخلت قبل ذلك بكثير ورأيت عيني التي لا ترتفع عن الطريق حتى لا يفوتها منظرك وأنت عائدة ، فلا شك أنك قد ضحكت من هذا الأبله المخبول الذي ينظر ولا يرى من فرط الاضطراب . . لا بأس . . واذا كنت لم أرك فانك في قلبي . . قلبي الذي صار محراباً لحسنك .. وإني لأحس أني أصبحت شيئاً مقدساً يحاولك فيه . . . .

ابراهيم عبد القادر المازني